علم الاجتماع الأنثروبولوجي

فوزي عادل *

ترجمة: العياشي عنصر **

ما هي المشكلة؟

إن حالـة الـوهن الشـديد الـتي يوجـد عليهـا علـم الاجتمـاع اليـوم في الجزائر، سـواء مـن حيـث التـدريس أو البحـث حقيقـة بإمكـان الجميـع ملاحظتها. وإذا كانت هناك زاوية نسـتطيع مـن خلالهـا قيـاس تـأثيرات التكوين المفتقد إلى ضـوابط (الجـامح débridée) فسـوف نجـدها في إنتـاج مذكرات الليسانس والماجستير. ويبرز التساهل السائد بهذا الصـدد بشـكل جيد انهيار القواعد الأخلاقية، العلميـة والتقنيـة الـتي يفـترض أن تضـبط مثل هذه العملية.

بإمكاننا الاعتقاد أن هذا الحكم القاسي نوعـا مـا، مصـدره الحـنين إلى العهد الماضي حيث كانت الممارسة العلماجتماعية أقل فوضى. لكن حقيقة الأمر أن هذه الملاحظة صادرة عن أولئـك الـذين يعتقـدون أنهـم وجـدوا في التغيرات التي أدخلها الإصـلاح الجـامعي مـبررات لممارسـة علـم اجتمـاع خصوصي.

---

* أستاذ علم الاجتماع بجامعـة قسـنطينة وباحـث بمركـز البحـث في الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة والثقافية بوهران.

** أسـتاذ علـم الاجتمـاع بجامعـة عنابـة وباحـث بمركـز البحـث في الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة والثقافية بوهران.

من بين الأعمال التي يتضمنها هذا الملف عمـل يرمـي إلى تقـديم تقـويم نقدي لرسائل الماجستير في جامعتي قسنطينة وعنابـة. وتؤكـد التحلـيلات الواردة فيه الملاحظات التي استقيناها من الميدان بهذا الشأن.

ما ذا يحدث في الواقع؟

تؤدي شروط ممارسة علم الاجتماع في الوقت الـراهن إلى فقـدان مسـتمر لرأسمال معرفي نظري وتطبيقي جرت مراكمته في مراحل سابقة. إذ نلمـس بسبب عوامل عديدة، سنقوم بتحليلها فيما بعد، منهـا التعريـب، إفقـارا للخطاب العلماجتماعي يعود بالأساس إلى تغير في موقع الحقل المرجعـي، وتحلل موضوع علم الاجتماع ليأخـذ طـابع شـيء هلامـي وضـبابي يـدعى "الاجتماعي".

هكذا نلمس في معظم الإنتاج العلمي تقريبا، أن محاولة التـنظير تخفـي بشكل سيئ عجزا واضحا في ترجمة قراءات منجزة بشـكل غـير مـنظم إلى تساؤلات محـددة. وتـتلخص النظريـة عنـدها في الإشـارة إلى منظومـات أو أنساق فكرية لا تمتلك أية خاصية إجرائيـة (مثـل الوظيفيـة، الماركسـية، الإمبريقية...) حيث يتعلق الأمر بإلحاق موضوع معين بمنظومة فكرية توفر بالضرورة تفسيرات معينة، يمكننا أن نستخلص منهـا فرضـيات لا تسـتند صياغتها إطلاقا للملاحظة الميدانية.

أما الموضوع ذاته فيبدو أنه يتلاءم أكثر مع انشـغالات أصـحاب القـرار (التنميـة، التصـنيع..) أو يعكـس النقـاش الـدائر في السـاحة العموميـة (الثقافـة، المدرسـة، الانحـراف...) وتبـدو نـادرة جـدا الرسـائل الـتي استطاعت تجنب فخ الخطاب الجـاهز حيـث تكـون موضـوعات البحـث مقترحة ومفروضة أحيانا من طرف محيط لا يـرى سـوى الجانـب النفعـي للعلم (ما فائدة هذا إذا لم يساهم في حل مشكلات معينة؟).

تبدو كل هذه السلبيات عند إنجاز المذكرات. وبسبب الفشل في أشـكلة الموضـوع يلجـأ الطلبـة إلى التركيـز علـى المنهجيـة، بمعنـى الإجـراءات والوسـائل التقنيـة الـتي يعتقـدون أنهـا سـتزودهم بإجابـات عـن الأسـلة

المطروحة. ولكن ما دام الموضوع لم يَبن علماجتماعيا فإن العملية ككل تأخذ طابعا شكلانيا، بل مغرقا في الشكلانية. إلى الحد الذي تصبح فيه المقاطع والفقرات المخصصة للجانب المنهجي بمثابة عرض لمعارف كتبية لا علاقة لها بالموضوع أحيانا كثيرة. أما بالنسبة لاختيار الاستمارة كأداة وحيدة للتحقيق وجمع المعلومات فإنه يجسد في أسوأ الحالات كسلا فكريا، وفي أحسنها القلق والخوف من مواجهة المجهول.

لقد أضحت الاستمارة دغما تتغذى باستمرار من اليقين الوضعي ومن الجهل المستمر بالتقنيات الأخرى المستخدمة لمعرفة الواقع. هنالك إذن نزعة واضحة نحو "المنهجوية" méthodologisme بمعنى نمو علم خاص بالمنهجية يتسبب في أضرار بليغة، ويدور في دائرة مغلقة بسبب عمله على تحويل التقنية الهادفة إلى مساعدة ممارسة بحثية في طور الإنجاز إلى قواعد أخلاقية.

لذلك فإن أولئك الذين يتزعمون الدفاع عن خطاب منهجي (وابستمولوجي) هم أنفسهم الذين غالبا ما يفشلون في إنهاء بحوثهم. ونعتقد بهذا الصدد أن المنهجية لا ينبغي أن تدرس بصفة مستقلة، بما هي مجموعة من القواعد والتقنيات التي لا علاقة لها بوضعية حقيقية وملموسة للبحث لأن المنهجية ليست تخصصا مستقلا، بل تشكل برهة تفكير غير منفصلة عن الممارسة البحثية.

كل هذا الحديث يدفعنا للتذكير أن فعل المعرفة يجسد قطيعة مع الأفكار المتداولة والمقبولة، فعل التزام يفترض المخاطرة؛ بمعنى السباحة ضد التيار والتفكير بشكل مغاير. هذه طريقة أخرى للقول أن البحث عبارة عن ممارسة للحرية؛ حرية التفكير، وحرية التعبير.

ما سبب هذه الوضعية؟

إن غاية هذا التوضيح ليس تذنيب ولا محاكمة أولئك الذين يعتقدون، اليوم، أنهم يمارسون علم الاجتماع. إنما يتعلق الأمر بالتساؤل حول إخفاقات نظام يقف اليوم عاجزا عن ضمان انتقال المعرفة، وأكثر من ذلك فشله في منح الطلبة وسائل الحصول على معارف أضحت عالمية. وينبغي أن يركز التساؤل على الظروف التي تشكل فيها حقل العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع بالخصوص.

نستطيع إلى حد معين أن نشاطر العياشي عنصر[1] الرأي عندما يتحدث عن غياب علم الاجتماع بدلا من كونه في حالة أزمة. تكتسي هذه الفكرة في الحقيقة قوة خاصة لأنه حتى في أفضل ساعات الانتصار التي عرفها علم الاجتماع (بما في ذلك مؤتمر علم الاجتماع المنعقد في 1975 بالجزائر الذي شكل قمة الحدث)، كان الأمر يتعلق ليس بعلم الاجتماع بقدر ما كان يتعلق بكيفية استخدامه.

لقد دشن إصلاح التعليم العالي في 1971 هذا التوجه بتأكيده على ضرورة الربط بين التكوين النظري والانشغالات العملية للمجتمع. نعرف الآن ماذا يعني هذا الكلام. لقد كشفت السلطة، منذ البداية، عن نيتها في استخدام العلوم الاجتماعية لغاياتها الخاصة، وشاركت بالفعل في إنتاج خطاب ملائم لتأسيس موضوع علم الاجتماع. هذا الخطاب لم يجعل من التنمية موضوعا للعلم فحسب، بل جعلها هدفا عمليا كذلك (إذن هدفا أيديولوجيا).

لا بد من التذكير أن سنة 1971 هي بداية عشرية ذات دلالة رمزية قوية: اعتماد قانون الإصلاح الزراعي، تأميم المحروقات، انعقاد مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر... الخ. عدد كبير من الأحداث التي يبدو أنها

---

[1] عنصر العياشي، "أزمة أم غياب علم الاجتماع" **المستقبل العربي**، عدد 137، أغسطس 1990.

أعطت مؤسسات النظام طابع السيادة. لكن من المقلق معرفة أنـه في خضـم هذه النشوة الوطنية أسندت مهمة صياغة برامج علم الاجتماع لأخصـائيين من بلجيكا.

لا يمكننا إذن، إنكار حقيقة وجـود انحـراف دائـم في علـم الاجتمـاع؛ يعتبر هذا الانحراف دون شك ثمـرة الموقـف الـذرائعي (الأداتـي)، ولكنـه نـاتج أيضـا عـن التحـول العميـق للمجتمـع. وإذا أمكننـا تحقيـب تـاريخ الجامعة باستطاعتنا تحديد ثلاث فترات:

1. سنوات 1960 أو ما قبل الإصلاح.
2. سنوات 1970 أو الاختيار التنموي.
3. سنوات 1980 أو اختيار التعريب.

تميزت هذه الفترات بدفق بشـري، باختيـارات سياسـية، وتوجهـات تربوية وعلمية عمقت انحراف العلوم الاجتماعيـة، وحالـت دون تشـكلها كحقل مستقل للإنتاج. لقد اعتبرت دمقرطة التعليم وتعريبه بمثابة أهـداف سياسية، وليست بمثابـة أدوات عمليـة موضـوعة في خدمـة غايـة تربويـة وعلمية.

هنالك عدد مـن التفسـيرات الـتي قـد تبـدو بديهيـة لهـذه الوضـعية: الشعبوية، المساواتية... لكن في الحقيقة هناك التدخل المشـترك لعـدد مـن العوامل من بينها؛ الأصول الاجتماعية المتواضعة باستمرار للطلبة، وارتفاع العنصر النسائي. هذه العوامل تفسر بقدر كبير تغـير التوقعـات تجـاه علـم الاجتماع. إذ من تصوره كأداة لإعادة اكتشـاف نظـام العـالم، تحـول هـذا العلـم إلى وسـيلة تعبئـة وتجنيـد أخلاقـي يتجسـد في تقييـد أكـبر لحقـل المرجعيات الفكرية و قراءة محددة للبرامج (يعطينا علم الاجتماع الإسلامي مثالا عن ذلك).

علم اجتماع علماء الاجتماع :

يكمن التفسير الآخر المساعد على فهم الصعوبة التي تمنع تأسيس علم الاجتماع كحقل قائم بذاته في علاقة علماء الاجتماع بالمعرفة. ويتضح ذلك من خلال التبعية الكاملة تجاه الدولة باعتبارها الجهة السياسية التي توفر خطابا علماجتماعيا. تتجسد هذه التبعية في الإعجاب الشديد بكل ما تقوم به السلطة وكأنها الفاعل الاجتماعي الوحيد على الساحة.

إذ تصبح كل الأفعال التي تقوم بها (التنمية، التصنيع، الإصلاح الزراعي، إصلاح المدرسة) موضوعا لخطاب علماجتماعي، وتتحول إلى موضوعات للبحث تظهر على كل مذكرات الليسانس والماجستير دون أن يثير ذلك مشكلة مدى ملاءمة الأسئلة المطروحة. في المقابل، حيث يسود الصمت المطبق من قبل السلطة فإن عالم الاجتماع هو الآخر لا يتساءل إطلاقا. ذلك هو الشان بالنسبة لموضوعات مثل العائلة، الدين، الجنس...الخ.

إن تحليلا علماجتماعيا معمقا سوف يسمح بفهم الأوليات الجوهرية (اجتماعية–عاطفية) للممارسة العلماجتماعية. في هذا المنظور (حالة التبعية للسلطة) فإن فعل المعرفة ليس فعلا لتمزيق الحجب، بقدر ما هو فعل لتأكيد حقائق قائمة. فالمعرفة العلماجتماعية والحالة هذه ليست ثمرة تحقيق من نوع خاص. إنما هي مدعوة لقول (أو إعادة قول) الحقائق التي تفرض نفسها على الجميع في شكل بديهيات.

يبدو من خلال الموضوعات المعالجة وطريقة معالجتها أن ليس هناك رفض للالتزام فحسب (لا يتعلق الأمر هنا بالتزام سياسي إن صح التعبير)، ولكن أيضا للمخاطرة. ذلك ما يفسر أحيانا اختيار موضوعات "باردة" ذات موضوعية زائفة، وتفادي موضوعات "ساخنة" أين يمكن تقديم إشكالية للتغيير لا تعبر عن تبني موقف معين فقط، أو تأخذ شكل

رد فعل تجاه أحـداث السـاحة السياسـية فحسـب. نقصـد بـذلك ظـواهر تخترق المجتمع في العمق مثل؛ العنف، المعاناة، بناء الهوية.

البديل الممكن: علم الاجتماع الأنثروبولوجي

هنالك بالتأكيد علاقة بين أنماط السلوك التي أشرنا إليهـا الآن وتطـور علـم اجتمـاع وضـعي يحقـق الطمأنينـة مـن خـلال ارتباطـه بـالإجراءات الشكلانية. وإذا كان تدريس دوركايم يشكل باستمرار مرجعا لعلم الاجتماع المعرب، فلأن هناك احتمال نجاحه في التوفيق بين ميول تبـدو متناقضـة؛ بـين منظـور علمـوي scientiste وموضـوعوي objectiviste مـن جهـة، والانشغال بالتوصل إلى نظام (أو قوانين) تبين اشتغال المجتمع مـن جهـة أخرى.

لا شك أن علم الاجتماع يقبل مبدأ الحتمية، بمثابة مبدأ السبب الكافي ("العلم الذي ينبغي أن يعلل ما هو موجود، يسلم انطلاقا من ذلـك أن لا شيء موجـود دون علـة وجـود")، ولكنـه لا يسـتطيع أن يرضـى بـالنظرة الميكانيكية لاشتغال المجتمعات كما تبدو من خـلال كـل أشـكال البنيويـة حيث ينتفي الوجود الحقيقي للأفراد، وينظر إليهم كـدعائم سـلبية لقـوى تتجاوزهم.

فالانشطار الحاصل اليوم في علـم الاجتمـاع إلى عـدة مـدارس، والحـوار الصعب أحيانا مع تخصصـات قريبـة، قـد يـوفر فرصـة لأولئـك الـذين لا ترضيهم المنظومات التفسيرية التقليدية. وبهذا الصدد يـبرز علـم الاجتمـاع الأنثروبولوجي كأحد البدائل المحتملة لهذه الوضعية.

إن علـم الاجتمـاع الأنثروبولـوجي حقـل جديـد. جديـد مـن حيـث موضوعه، وأسئلته، ومناهجه. يتحدث بورديو[2] حقا عن تفكير أيـن تفقـد الحدود بين التخصصات والمناهج دلالتها. إنهـا تسـمح بتجـاوز التعـارض الدوركايمي الفرد/المجتمع، والتحرر من هذا المنظور ذي الخطأ المضاعف:

[2] Bourdieu, P. Questions de sociologie. Ed. de Minuit, 1980, p. 44.

بنائيـة ميكانيكيـة تضـع الفـاعلين في عطلـة، وفردانيـة غائيـة يجسـدها الإنسان الاقتصادي. ينبغي، كمـا يقـول بورديـو، تفنيـد "العمـل المفتـت" الناتج عن مثل هذا التصور وإعادة الوحدة الجوهرية للممارسة الإنسانية.

فالموضوعية لا تتعارض مـع الذاتيـة. لأن هـذه وتلـك تسـهمان في بنـاء العالم الحقيقي بصيغة تعطي له حياة مضاعفة: الأولى ممثلة في الموضـوعية مـن الدرجـة الأولى (مـوارد ماديـة، ممتلكـات، قـيم ...)، والثانيـة في الموضوعية من الدرجة الثانية في شكل مخططات ذهنية وجسدية.

يقوم العـالم الاجتمـاعي في هـذا المنظـور علـى نشـاط إنسـاني ملمـوس. فالأفراد لا يشكلون وحدات اجتماعية مستقلة (كما يدعي علم النفس)، بل أن أنشطتهم وممارساتهم تسمح بالتعرف علـى الصـيغة الـتي يتحقـق بهـا الجمـاعي. إذ أن "ملكـة الاسـتعداد الـداخلي" Habitus كمـا يحـددها بورديو تعبر في الحقيقة عن الجماعي الفردي. إن ملكة الاسـتعداد الفـردي مفهوم مركزي لأنه يمكّننا مـن فهـم كيفيـة تحقـق الـتلاؤم بـين الأبنيـة الاجتماعية (الموضوعية من الدرجة الأولى) والأبنية الذهنية (الموضوعية مـن الدرجة الثانية).[3] وتجدر الإشارة إلى أن علم الاجتماع الأنثروبولوجي مدين لعلم اجتماع الفهم الذي طوره ماكس فيبر[4]، لأنه يستلهم نفس المبدأ القائم على الفهم من الداخل والانغماس في العالم الاجتماعي. حيث يسمح الفهـم من الداخل برؤية الكيفية التي ينبني بهـا واقـع "موضـوعي" انطلاقـا مـن

---

[3] يحدد بورديو مفهوم L'habitus الذي نعربه "ملكة الاستعداد الداخلي" اقتداء بالباحث المغربـي فاوبار محمد على النحو التالي: "إنه بالضبط ما تجسـد وترسـخ بصـورة مسـتمرة في الجسـد، إنـه يتعلق بتاريخ فردي، كما أنه رأسمال مدمج ومولد بقوة أكثر مما هـو تكـرار كالعـادة". Bourdieu questions de sociologie, Ibid. p. 134 أنظـر، فاوبـار محمـد "دراسـات في علـم اجتمـاع التربوي"، **دراسات عربية**. عدد 8/7، مايو/ يونيو 1995.(المترجم)

[4] قليلة هي المراجع بالعربية التي تتناول عمل فيبر وبخاصة ما يتعلق بعلم اجتماع الفهم. لمزيد من الاطـلاع حـول هـذا الموضـوع يمكـن الرجـوع إلى كتـاب عنصـر العياشـي الموسـوم: **علـم الظـواهر الاجتماعية**. دار طلاس، دمشق 1990. (المترجم)

نشاط محدد للأفراد. ويتعلق الأمر من هذا المنطلق بتسليط الضوء على العلاقات الموجودة بين الأشياء، بدلا من فتح المجال لرؤية جوهرية substantialiste.

انقلاب في المنهج

إذا كان الأمر كما يقول كوفمان J.C Kaufmann "باستطاعة الإنسان العادي أن يعلمنا الكثير"[5] فإنه يترتب عن ذلك على المستوى المنهجي كثير من النتائج، وبالخصوص تلك المتعلقة بممارسة ما يمكن ترجمته "التعاطف مع الآخرين" l'empathie بمعنى تنمية استعدادات تسمح باكتشاف "معرفة" اجتماعية يحملها الأفراد.[6] ولا ينبغي اعتبار المعرفة العامية "لا معرفة"، ذلك لأنها تقدم لنا قيمة علماجتماعية معتبرة ما دامت تنطلق من معرفة عملية أو تطبيقية تزيح الستار عن مصالح واستراتيجيات الفاعلين الاجتماعيين.

غير أنه لا يكفي الحصول على هذه المعرفة أو الرضى بالفهم. بل لا بد أيضا من التأويل والتفسير حتى لا نترك المجال لنزعات سهلة. بل من الواجب ممارسة روح الصرامة التي تقتضيها كل عمليات تحصيل المعرفة.

ذلك ما يبرز غموض المناهج التي تعتبر نفسها نوعية، لكنها لا تستطيع تقديم البديل إلا إذا اعتمدت على نسق تفسيري متماسك. فالتعارض بين المناهج النوعية /المناهج الكمية في الواقع مشكل زائف. والمقابلة تعتبر دون شك أفضل الوسائل لممارسة علم اجتماع الفهم، ولكنها لا تستثني اللجوء إلى وسائل أخرى؛ بما في ذلك الاستمارة ذات السمعة السيئة.

إن ما هو معيب ليس هذه التقنية أو تلك، بل الاستخدام السيئ

---

[5] Kaufmann, Jean-claude. L'entretien compréhensif. Paris, Nathan Université. p.23

[6] نفس المرجع، ص 23

للمنهجية أو ما نسميه "المنهجوية" التي هـي إحـدى سـلبيات الوضـعية. فالمنهجوية تعبر عن نزعة قوية للفصل بين التفكير حـول المـنهج وتطبيقـه بالفعل في العمل العلمي. ففي حالة غياب وجهة نظر مبنية (موضوع مبني علماجتماعيـا) لـن تكـون هنـاك إمكانيـة لتـثمين وسـائل منهجيـة معينـة لذاتها. وتبقى النظرة الشاملة لمختلـف مراحـل وعمليـات البحـث وحـدها كفيلة بتحديد الوسيلة المثلى.

يلعب الميدان، بهذا الصدد، دورا حاسما لأنه يسمح بتحقيق الانغماس الذي أشرنا إليه سابقا، فعادة ما يكون نقطـة الانطـلاق لأشـكلة الموضـوع. الفكرة هي أن علم اجتماع الفهم لا يستطيع صياغة فرضيات إلا بالانغماس شبه الدائم في العالم الاجتماعي. وبذلك فـإن الميـدان لـيس مجـرد مرحلـة للتحقق كما يبدو ذلك في البحوث الشكلانية.

لا يتعلق الأمر هنا بمعارضة النظرية بالحسي (الميدان)، ولكـن بإعطـاء النظرية وظيفتها الحقيقية: ألا وهـي تفسـير الواقـع. وإذا بقيـت النظريـة مجرد تخمين بدون موضوع فإنها لا تستطيع خدمة البحث في شيء. إنهـا لـن تكـون مفيـدة إلا إذا وظفـت في إشـكالية حيـث يـتم التمفصـل بـين الملاحظات، التخمينات، المعلومات والأنساق التفسيرية المتـوفرة. وتشـكل الفرضيات موقعا منتخبا لتأكيد وجهة النظـر المبنيـة والشخصـية للباحـث حول موضوع بحثه.

في صيغة خلاصة مؤقتة

ليس من الممكن أن نتعرض في مثل هذه الورقة لكل المشكلات المرتبطـة بالوضعية الراهنة، وأبعد من ذلك تصور آفاق معقولة.

في ظل غياب سوق لعلـم الاجتمـاع، لا شـيء يسـمح لنـا بالاعتقـاد أن تراكم المعارف لذاتها بإمكانه أن يصـنع المعجـزات. لقـد مـرت مرحلـة –

السنوات السعيدة للإصلاح– كانـت فيهـا مجموعـات محـدودة مـن علمـاء الاجتماع الأفظـاظ جـدا bien léchés يتبـاهون بالاعتقـاد أنهـم يشـكلون مدرسة.

أما اليوم وقد كنس الموج القادم من الأعماق ذلك الحلم، ينبغـي العمـل من أجل رسم مسالك جديدة للبحـث مـن شـأنها التعـبير عـن خصوصـية الموضوع والطريقة في آن واحد، بحيث تتضـمن كـذلك تفكـيرا صـادقا عـن علاقة الباحث بموضوعه. ودون التنكر للإرث التقليدي، يمكننا اعتبار هذا الموقف بمثابة الشرط الضروري للتخلص نهائيا مـن ممارسـة علماجتماعيـة متحجرة، وإطلاق حركية تجديد منقذة للنظرة العلماجتماعية.